**المحاضرة الثانية : ظاهرة الاسترقاق في أوربا**

تعد ظاهرة الاسترقاق من الظواهر الاكثر بؤسا ومقتا في التاريخ البشري، وتظل البلاد الاوربية من المناطق الاكثر ممارسة لهذا السلوك المشين سواء كان موضوعه ذووا الجنس الابيض ( وهم المعروفون بالصقالبة) الذين جلبوا من لدن الجرمان واليهود من بلاد الفرنجة وحوض الدانوب وبلاد اللونبارد وغيرها من مناطق عالم البحر المتوسط ليتم بيعهم في الاندلس، أو الجنس الاسود وهم الاكثر عددا ورواجا في أسواق النخاسة التي أدارها الأوربيون.

وما يزال التاريخ يحتفظ بفصول من العار والاهانة فيما يتعلق بالاسترقاق الاوربي لكثير من شعوب الارض سواء مع فيالق الجمهورية الرومانية وقراصنتها على السكان والاقطار الشرقية أو حين زخر بحر ايجة بتجارة الرقيق وذاع الصيت البغيض لجزيرة ديلوس بصفتها مركزا لتجارة الرق الاوربية.

وحسب رواية سترابون المؤرخ الاغريقي، فقد كان يتم بيع وشراء عشرة آلاف عبد في اليوم الواحد.

ثم تحول نظام الاسترقاق إلى نظام موالي الارض والسخرة في المزارع والحقول.

رق المزارع الكبيرة في العالم الجديد

والحق أنها لوصمة عار أن أطول حقبة عرفها تاريخ تجارة الرق هي التي بدأتها دول أوربا الغربية: اسبانيا، البرتغال، فرنسا، هولندا، بريطانيا، بعد أن كان قد مر أكثر من الف عام على توطيد دعائم المسيحية فيها، كما أنها لوصمة مروعة على المسيحية أن الاسترقاق الحديث كان أخطر وأسوأ مظهرا من الاسترقاق القديم: ففي العالم القديم ساد الاسترقاق المنزلي المثقف للعقول، الانسان المظهر في أغلب الأحيان، كان هذا الاسترقاق أجل شأنا وأوسع نطاقا من الاسترقاق الذي كان يوجد يومئذ في المناجم والمزارع.

أما في العالم الجديد، فقد كان الأمر على النقيض من هذا، فقد صار الانتاج الكبير القاعدة الاقتصادية السائدة، وكان سد حاجات الاوربيين من الشاي والتبغ والقطن يقوم على عمل الرقيق الذين كانوا يقنصون من افريقيا من قبل أياد نهابة نزعت الانسانية والرحمة من قلوبها.

إنسانية اسبانيا النسبية: تعد اسبانيا من بين الممالك الغربية القناصة للعبيد، فقد خطت هذا الفصل الجديد من الفظاعة والوحشية البشرية، وإن امتازت اسبانيا بمعاملة إنسانية نسبيا، فمع أن قسوة هذا البلد في الدور الأول ثم في الدور الختامي لامبراطوريتها عبر البحار، مع أن قسوتها على رعيتها المستعبدة في مستعمراتها الامريكية، إلا أنه كانت هناك فظاعة ورعبا عن أي دولة أوربية أخرى، وإن كانت هناك فترة طويلة توسطت الدورين، قامت فيها الكنيسة الكاثوليكية بجهود مجندة لتحسين حال السكان العبيد في المستعمرات الاسبانية، فقد كانوا ينصرون ويهيأون لتناول القربان المقدس وسماع الكلمة المقدسة، ويبقون في حظيرة الأسرة ويدخلون عن طريق عضويتهم في الكنسية في نظام الحكم الاسباني.

تجارة الرقيق الانجليزية: في المستعمرات الانجليزية لم تبذل كنيسة انجلترا مثل هذه الجهود، وكما قال كاننج " لم تكن تحسب لهؤلاء العبيد قيمة كبيرة مما تحسب للحيوان الذي يقاسمهم النصب والكدح"، وعلى حين دأبت الكنيسة الاسبانية على جهودها الدينية، فإن ملاك المزارع البريطانيين كانوا يعبسون في وجه أية محاولة تثير هواجسهم لنشر العقيدة المسيحية بين عبيدهم، بل إنهم كانوا يحولون دون ذلك، ولم تتخذ الكنيسة الانجليزية أي أجراء .....في هذا الموقف. وإن القصور النسبي للمذهب البروتستانتي، وعجزه عن التلطيف من حدة آلام تلك التجارة الدنيئة والمقيتة وأهوالها، لهما أعظم خطرا وأشد وقعا، بالنظر إلى هذه الحقيقة، وهي أنه من بين جميع تجار الرقيق الاوربيين، كان التجار البريطانيون أعظمهم نجاحا وتوثيقا وبالتالي أكبرهم إثما وجريرة.

فقد بلغ المجموع الكلي للعبيد الذين جلبوا من إفريقيا إلى المستعمرات الانجليزية في العالم الجديد بين عامي 1680 م و1786 ما يربو كثيرا على المليونين.وقد ناصر زعماء سياسيون كبار كاللورد تشاتم lord Chatham هذه التجارة كركيزة أساس للاقتصاد البريطاني، كما انتصر لها رجال بحر مثل نلسن، وكانوا يرونها سندا للأسطول التجاري البريطاني.وقد كانت تجارة الرقيق سببا في رخاء مدينة ليفوربول وثروتها وأيضا رخاء ونماء ثروة برستل[[1]](#footnote-1).

ولهذا السبب كانت مكافحة المصالح الموروثة القوية المرتبطة بتجارة الرقيق البريطانية عملا هائلا جبارا، ففي القرن 18 م لم يكن لبريطانيا مستعمرات أثمن لها من مستعمرات جزر الهند الغربية التي تنتج السكر، ولما كانت أرض هذه الجزر يفلحها الارقاء الأفارقة، فقد وقف أرباب المصالح الانجليز في تلك الجزر صفا مرصوصا لمحاربة أي اقتراح يهدف إلى تحقيق أو محو هذه التجارة التي كانت تدر عليهم أرباحا كبيرة، دون أن ننسى رغبة فريق آخر من الانجليز الذين يهمهم أمر ضياعهم التي يعمل فيها الرقيق في القارة الامريكية، فضلا عن الامريكيين، قبل أن يفك ارتباطهم بالانجليز من الذين يمكن الاعتماد عليهم للدفاع عن الاسترقاق في امريكا.

ونظرا لهذه المصالح المترابطة والكبيرة، يمكننا أن ندرك صعوبة اجتثاث هذا النظام.

حركات الغاء الرقيق: مع ذلك، انطلقت من بريطانيا أكبر حركة أفلحت في إلغاء نظام الاسترقاق في الجزر البريطانية سنة 1772م، ثم تحريم تجارة الرقيق فيها سنة 1807م، ثم إلغاء نظام الاسترقاق في المستعمرات الانجليزية سنة 1833م.وأخيرا عملت انجلترا بكل ما يتسع لها الذرع على إيقاظ الوجدان العالمي كي تكفل اتفاقا واسع النطاق، بل يكاد أن يكون بالإجماع ، على اقتلاع ذلك الشر من جذوره[[2]](#footnote-2).

ويعود الفضل في الحصول على الحكم الشهير الصادر عن كبير القضاة منسفيلد lord mansfield سنة 1772 في قضية جيمس سومرست james somerst الذي قضى بأن نظام الاسترقاق غير معروف في قانون انجلترا العام، وأنه حالما تطأ قدم عبد من العبيد أرضا انجليزية، يصبح معتقا، يرجع الفضل في صدور ذلك الحكم إلى غرنفل شارب Grenville Sharp، وهو موظف من موظفي الحكومة مغمور المركز والثراء، لكنه مليء القلب بالحنان والعطف ، متين الخلق، قوي العزم، استفزه مشهد استخدام القسوة البالغة مع عبد أسود في أحد شوارع لندن، فلم يهدأ له بال حتى حصل على ذلك الحكم الذي طهر وقتئذ الجزر البريطانية من وصمة الاسترقاق.

ثم جاء من بعده رجال من المحررين الانجليز، جديرين بأن تخلد أسماؤهم بمداد الفخر من أمثال وليم ولبرفورس، وتوماس كلاركسون، وزكرياء ياماكولي وجيمس ستيفن، وقد مكنت جهودهم التمهيدية التي دامت عشرين عاما تشارلس فكس رئيس الوزارة البريطانية يومئذ من اقرار قانون إلغاء الرقيق، وكذلك امثال توماس فول بكستن الزعيم البرلماني لفريق الراغبين في محو الرق الذي أثار حمية مجلس العموم للموافقة على إلغائه، وبراوام الذي حمل مشعل قضية إلغاء الرق على طول البلاد وعرضها، وبلمرسن الذي أوقف تجارة الرقيق بين البرتغال والبرازيل، فضلا عن جهود زمرة من رجال الحرب والسياسة أمثال داود لفنجستون وتشارلس غردون والسير جون كرل واللورد لوجارد من الذين فتحت جهودهم إلى حد كبير القارة الافريقية للعالم، وخلصوها من قناصي الرقيق العرب وآثارهم، ولهذا قال ليكي lechy المؤرخ الانجليزي: إن حملة انجلترا الصليبية ضد الاسترقاق " تعد على الارجح من بين الصفحات الثلاث أو الاربع الناصعة في تاريخ الدول والشعوب"[[3]](#footnote-3).

ومن دون شك فإن نجاح ثورة المستعمرات الامريكية أفاد قضية إلغاء الرق في بريطانيا.فقد أقصى استقلال أمريكا فريقا قويا من أنصار الاسترقاق من حلبة الجدل والنقاش في مجلس العموم.

كما استفادت قضية الرقيق من اتحاد ارلندا ببريطانيا سنة 1801م، فقد أسهمت هذه الخطوة في حضور مجموعة من الاعضاء الارلنديين الذين إذ لم تكن لهم مصلحة في بقاء تجارة الرقيق، كانت أذهانهم مهياة للاستجابة لنداء الحرية والعدالة.

فائدة البرلمان الانجليزي: غير أنه من الجدير بالذكر القول إن هذا العمل الجليل الهادف إلى إقبار الرق أمام المقاومة المنظمة التي ناصرته، لم يكن ليتم لولا وجود البرلمان.ذلك أن انجلترا كانت تملك في مجلس العموم هيئة يمكن أن تسلط الضوء على الامور الخبيثة والمدانة، لذلك أمكن تعريف الامة بواحدة من تلك الامور الاكثر قتامة، وهي الاسترقاق المقيت والبغيض، حتى توقع بالقوات المادية الكبيرة المؤيدة له الهزيمة والاندحار.

لذلك فمن المغري أن يلقب وليم ولبرفورس الزعيم البلماني لجماعة إلغاء الاسترقاق " بلبل مجلس العموم"، وأن إلغاء تجارة الرقيق أقر سنة 1807م على يد تشارلس جيمس فكس أعظم خطباء زمانه البريطانيين.

جهاد بعض الطوائف الدينية: خلف هذا التهييج البرلماني، قامت حركة حفزتها تلك الدوافع الدينية والاخلاقية المتغلغلة في أعماق النفوس ويتعلق الأمر بجماعات الكويكريين والميثوديين الانجليز في الشطر الأخير من القرن 18 م، بل إن لجنة الستة "التي كانت الاولى في القيام بحملة منظمة سنة 1783 في البلاد الانجليزية ضد الاسترقاق، كانت مؤلفة من " الكويكريين"، وكانت " شيعة كلايم" وهو الاسم الذي اطلق على جماعة ولبرفورس، كانت متأثرة إلى حد بعيد بضروب الاختبارات الدينية الشخصية التي دعا إليها يوحنا وسلي المبشر الدائع الصيت، وأوصى بمثاله وأسوته الناس بإنتهاجها.

مؤثرات أخرى تضافرت مع تلك القوى كنشر آدم سميث آراءه الاقتصادية السليمة، وجريمي بنتام مبادئه العقلية الانسانية، فإن القوة المسيطرة التي جعلت الالغاء ممكنا كانت وحيا من التدين العميق والاخلاق الحميدة التي عمرت قلوب نخبة صغيرة من الانجليز من الدين لم يهنأ لهم بال حتى يقوضوا أسس هذا الوزر العظيم الذي هو الاسترقاق.

مراحل إلغاء الاسترقاق البريطاني

سجل اللورد منسفيلد أول انتصار أحرزه في قضية النضال الطويل الامد ضد الاسترقاق، فقد أدى مباشرة إلى تحرير قرابة خمسة عشر ألفا من العبيد السود كانوا قد جلبوا إلى انجلترا من قبل أسيادهم.أما المرحلة الثانية، فتمثلت في الهجوم المباشر على تجارة الرقيق في حد ذاتها، فعلى الرغم من النفود والجهود المشتركة لولبرفورس ووليم بث، فقد تمكن أصحاب المصالح المالكة للرقيق من وأد مقترحات إلغاء تجارة الرقيق في مجلس الوزراء، وفي مجلس العموم، وفي عموم البلاد.

مع وفاة المدافع الشرس يث سنة 1806م، وتقلد فكس وزارة الخارجية استطاع وبدعم من النواب الارلنديين أن يلغي تلك التجارة مما شكل ضربة موجعة لمنتجي القطن في أمريكا ولزارعي قصب السكر في جزر الهند الغربية المستفيدين من أيدي العبيد.

وهو ما يعني أن الالغاء جاء في وقت مناسب وذلك في 25 مارس سنة 1807م ثم سن سنة 1811 قانون آخر جعل الالغاء اكثر فعالية، إذ جعل تجارة الرق جناية عقوبتها النفي[[4]](#footnote-4).

والحق أن هذا الالغاء جاء بفضل شجاعة بث وفكس التي ضربت عرض الحائط آراء الخبراء البحريين الذين يراهنون على قوة الاسطول البريطاني زمن الحرب.لقد انتصرت الاصوات المدنية على صقور الحرب.

لقد دخلت انجلترا مؤتمر فيينا بصفتها دولة ألغت الرق، كما استطاعت استقطاب الدول الثمان الكبرى المشاركة فيه عبر تصريح قاطع بأن إلغاء تجارة الرق عاما شاملا هو تدبير " جدير كل الجدارة بعناية تلك الدول وحسن رعايتها متفق وروح العصر".

ومن تلك اللحظة صار إلغاء الرق هدفا للسياسة الخارجية البريطانية في مستعمراتها، وتحمس لتلك السياسة رجالات الامة ذووا المقاصد السياسية السامية والنبيلة.

وفي سنة 1833م أقر البرلمان البريطاني إلغاء الاسترقاق في جميع المستعمرات البريطانية، ووافق على اعطاء تعويض قدره عشرون مليون جنيه لأصحاب العبيد في تلك المستعمرات.

مكافحة تجارة العبيد الاجنبية: كانت محاربة الاسترقاق عسيرة في الكثير من البلدان الاوربية، ففي فرنسا لم تفرض عقوبات رادعة على جريمة تجارة الرقيق إلا في سنة 1831، ولم تفرضها اسبانيا إلا سنة 1835.

وعلى الرغم من تملص العديد من التجار من العقاب، فقد أنشأ نظام لخفارة البحار.وكان الفضل للأسطول البريطاني في القضاء على ظاهرة الرق البرتغالية في غرب الكرة الارضية.

إن حصيلة الاتجار في العبيد من لدن الاوربيين تجعل من القارة العجوز أبرز القارات التي تورطت من عمليات الخرق السافر لحقوق الانسان، فقد أمعنت في اذلال العبيد من المنازل إلى المزارع الكبرى والمناجم خدمة لمصالح تجارها سواء كانوا أفرادا أو شركات.

و رغم ما أنتجته من مرجعيات قانونية وحقوقية، طاما افتخرت بها دوما على مر العصور في محاولة للتكفير عن خطاياها، و المصالحة مع ماضيها من خلال ما أصدرته من قوانين ومراسيم لإلغاء وتجريم تجار الرق، فإن تلك المحطات المظلمة ستبقى لصيقة بتاريخها خلال القرن التاسع عشر، كما أن أوربا ستعود لممارسات انتهاكات جسيمة لحقوق الانسان خلال القرن العشرين في مختلف مستعمراتها وإن بأساليب ومبررات مختلفة ما يؤكد زيف شعاراتها.

1. - شنيرب "تاريخ الحضارات العام"ج6، ص 353 [↑](#footnote-ref-1)
2. - روبير شنيرب" تاريخ الحضارات العام"، ص 353 [↑](#footnote-ref-2)
3. - نفسه، ص 354 [↑](#footnote-ref-3)
4. - روبير شنيرب " تاريخ الحضارات العام"، ص 356 [↑](#footnote-ref-4)